ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٣ —

لقد آذانى معالى السيد أرشد العمرى ، وكظمت غيظى فلم أسمعه ما يكره ، وقلت فى نفسى : إن الرجل تصور أننى أهنته فسحب منى الدعوة ، والجروح قصاص

وقلت : هم سيقضون السهرة فى الرقص وسأقضيها فى التأليف وأنا أجد لذة ممتعة حين أرانى أجدّ فى وقت يلعب فيه الناس

وتذكرت أنى أشتغل مطبعتين فى بغداد ، وأن من الخير أن أعتكف فى المنزل فأحضر بعض الوقود لجحيم المطابع

وكذلك اطمأننت إلى الزهد فى ليلة بغداد التى وُعِدَ بها المؤتمرون !

* * *

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة ؟ هى دعوى لسياحة طريفة فى ضواحى الكرخ وبغداد ، نتفرج بها على إسالة الماء . وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق ، ولم أر فى بغداد غير الجادة والدربونة ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق وما تيسر من سواد العيون

وسرت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرمى إلى غرضين : الأول الترويح عن النفس ، والثانى كتابة بحث لمجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج

فهل روحت عن نفسى وأعددت موادّ البحث المنشود ؟

ما صنعت شيئاً من ذلك ، وإنما دارت الأرض تحت قدمىّ حين رأيت صاحبة العينين ، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية فى تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النمير ، وكنت أنظم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين . ومن العجيب أن أمري لم ينكشف ؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أننى كنت المستمع الواعى ، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تسقيان من دجلة لا من الفرات

ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل !

ومضينا فتناولنا الشاى والفاكهة فوق العشب الأخضر وبين الأشجار التى أذوتها أرواح الشتاء ، وأدير على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلد المحبوب ودينى زاد وجدى والبعد كاوينى

فكانت بلد المحبوب عندى هى المائدة التى تجلس عليها صاحبة العينين ، ولكن أين من « يودينى » هناك ؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بينى وبينها غير ثلاث خطوات

يا مسافر على بحر النيل أنا لىّ فى مصر خليل

فرمقتني صاحبة العينين بنظرة حنان . فمن الذى أعلمها أنى نشأت فى ديار النيل ؟ مَنْ أعلمها ذلك وعلى رأسى سدارة ، والمصريون كلهم مطربشون !

وهممت بالتسليم عليها ، ولكن صدتنى العصابة التى كانت تحرسها منى ، وصدنى أن مكانى كان قريباً من مكان رئيس الوزراء ثم تفوض المجلس وانفض الناس ، والدنيا اجتماع وافتراق

* * *

كيف السبيل إلى رؤية هذه الظبية فى المساء ؟

إنها ستكون بالسهرة البغدادية التى وُعد بها المؤتمرون

وأنا ممنوع من سهرة بغداد

ولكن من الذى يتمنى ؟

هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالى أرشد العمرى .

أهلاً وسهلاً بمعالى الأمين !

أأنت الذى يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله كاتب في قديم ولا حديث ؟

أنت مهندس بغداد ، وأنا أديب بغداد ، وسترى لمن يكون الخلود ...

* * *

وأخذت أفكر فيما سأصنع ، فهذه الظبية ستكون فى المرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب فى رياضة العصابة التى تحرسها منى !

وأنا قد تعلمت الرقص فى باريس وأخشى أن أنساه ، وحياة العلم مذاكرته كما قال القدماء

وهل من الإثم أن أهتم بهذا كرة ما تعلمت ؟ وهل أنفقت من الوقت والمـال فى سبيل الرقص ما أنفقت لتضيع منى فرصة لن تعود من فرص بغداد ؟

لا بُدّ من حضور هذه السهرة .

لا بُدّ مما ليس منه بُدٌّ

* * *

ولـكن كيف ألقى معالى أرشد العمرى وهو غضبان ؟

أنقف فنتناوش ونتضارب ؟ وهل أرسلتنى مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال ؟

لو كانت المسألة بينى وبين هـذا الرجل مسألة شخصية لضاربته وقاتلته بلا تهيب . وما أحسبه يزعم أنه أقوى منى ، ولـكن المسألة أنى مصرى وهو عراقى ، وأنا أنفق دمى فى خلق الصلات بين مصر والعراق ، وإقامتى فى بغداد أقنعتنى بأن مصر لا بدّ لهـا من مودة العراق ، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذى يسلم فيه المصريون من أذى الناس . وهذه العواطف ليست جديدة عندى ، وإنما تلقيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية ، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها الحلف الشريف بين المصريين والبابليين ، وما جاز فى عهد الجاهلية لا يستحيل فى عهد الاسلام إلا أن نـكون من الأغبياء

وتذكرت أن بغداد تحوطنى بأشرف معانى العطف ، وأنه ليس من الذوق أن أحرج رجلاً هو أمين بغداد ، وهو أكبر منى سناً ولعله أكثر تجربة ، والتحامل عليه ضرب من العقوق

وتذكرت شعار مصر وشعار العراق

أما شعار مصر فهو : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا »

وأما شعار العراق فهو :

سيوفنا قاطعة لِلّى يقابحنـا ورقابنا قنطرة لِلّى يسامحنـا

وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس فى السهرة ، وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجرّ إلى الزكام ، وأنا مدرس ، والمدرس المزكوم منظره سخيف ، فما الذى يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه فى السهرات هذا حلٌّ موفّق ، ولـكن لابدّ من الاحتياط ، والاحتياط هو أن أذهب قبل الموعد بساعة إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول ، ومذهبهم هو أن تحتلّ أولاً ، ثم تفاوض بعد ذلك !

* * *

كان طريق من باب المعظّم إلى بهو أمانة العاصمة يوحى الشعر والخيال ، فقد كانت ليلة عيد ، وكان القمر ينظر إلىّ فى ترفق كأننا فى سنتريس ، ولـكن صدرى كان مكروباً بعض الكرب . فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهى موعد غرام ، وهى فى هذه المرة قد تـكون حومة قتال

مشيت مشية المتمهل لأجتلى طلعة القمر ، أو لأؤخر الشر لحظات .

فلما دخلت البهو وجدته خالياً ، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقتُ الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية ؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلىّ الذى تفكر القادير فى شغله بالحب ، وجدته كالغادة التى تنتظر العاشق الصوال

دخلت وحدى وتلفتّ فلم أجد أحداً ؛ وبعد لحظة لمحت شبح معالى الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيج

وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يبدو إلىّ عَدْواً فقلت : هذه طليعة الشر ، وتأهبت للصِّيال

ولـكن الرجل أخلف ظنى كل الإخلاف ، فقد حيانى أجمل تحية ، وأخذ يدى برفق فدلنى على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام ، فقلت :

سيدى ، هل لك أن تُذكّرنى متى تلاقينا أول مرة ؟ أترانى عرفتك فى القاهرة أو فى باريس ، ذكرنى فقد نسيت !

فأجاب فى لطف :

ما أذكر يا مولاى أننا تلاقينا قبل اليوم ، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العزيزة ، وللمصرى على العراق حقوق الأخ الشقيق

فرفعت الكأس وقلت : تعيش بغداد ، ويحيا العراق . !

وسألت بعد ذلك عن اسم هـذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور ، وكذلك استحال على معالى أمين العاصمة أن يلقانى بغير الابتسام

* * *

نحن الآن فى بغداد ، فى ليلة ما رأى مثلها الرشيد ، وإن تعبَ الواصفون فى التذكير بليالى الرشيد . هي ليلة بغدادية لا قاهرية ، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب ، ويختلف حولها الفقهاء ؛ أما بغداد فتعرف الليالى الساهرة عن الآباء والجدود . هى ليلة سيذكرها من رآها وستحتل أقطار ذهنه إلى اللحظة التى يعانى فيها سكرات الموت ؛ هى ليلة تمثل الفتوة العراقية وتذكر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت

كان الناس كلهم فى سماحة الملوك ، وكنت وحدى أبخل الحاضرين ، فقد سألنى رجل عظيم متى أرقص ، فكذبت عليه وقلت لن أرقص ، مع أنى ذهبت إلى ناحية قَصيّة وراقصت ثلاث فتيات ، وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد ، وعند الكرام الكاتبين جريدة الحساب

لا أدرى والله ماذا صنعت فى تلك الليلة ، إلا حادثتين اثنتين : الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص فقد ارتفعت الأصوات : يحيا الدكتور زكى مبارك ! وكان الأستاذ على الجارم بك بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمى فلم يتردد كما كنت أتوقع ، وإنما هتف هتاف الصديق ؛ ثم شق الصفوف إلىّ فعانقنى وهو يقول : أنا فرحان لك يا دكتور زكى ! فرحان لك يا أخوى ، فرحان لك يا حبيبى ، فرحان لك يا نور العيون يا زهرة مصر فى العراق

وإنما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا فى قليل من الأحيان

ولا مؤاخذة يا جارم بك ، يا حبيبى يا نور عيونى ، يا أحلى من ملح رشيد !

أما الحادثة الثانية فهى طرفة لا تقع من رجل سواى

فقد عثرت فى الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية ، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة فى مرقص ، فقلت فى نفسى : ماالذى يمنع من التصدق على هذه الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟

وأنا فى الحقيقة « رجل إنسان » كما يعبر أهل القاهرة ، أو « رجل آدمىّ » كما يعبر أهل دمشق . وما أذكر أبداً أن سائلا سألنى وخيبته ، وأنا لا أستحى من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع ؛ وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللؤم أن نكون بخلاء

طافت هذه الخواطر بنفسى وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت إن ليالى هذه لن تخلو من سيئات ، ولا بد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات ، فتوكلت على الله وأقدمت

سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام ، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفنى

وقبلت يدها فابتسمت

فقبلت جبينها وخديها ، ثم قبلت جبينها وخديها ، وانصرفت

ولكنى لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح : يا دكتور مبارك ! يا دكتور مبارك !

فالتفتّ مذعوراً فاذا سكرتير مجلس الوزراء . فقلت : وقعت الواقعة وحقّت القضيحة ، وجمعتُ أشتات قواى وقلت : نعم ، يا سيد !

فقال : لن نحاكمك إلا إلى قول شاعركم شوقى

فقلت : وماذا قال شوقى ؟

فأجاب إنه قال :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

فهو قد فرض أن تسبق القُبلة بستة أشياء ، وأنت قبّلت بدون مقدمات

فقلت : يا سعادة الأستاذ ، لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . إن شوقى قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ماعرف الناس ، ونحن اليوم فى عصر اللاسلكى والطيران فلا تلمنى إن قبّلت بدون مقدمات ، فمن العقل أن تتخلق بأخلاق الزمان

طابت السهرة وطابت ثم طابت ، وعرفت فيها ظبياً نبيلاً كان يصادقنى عن طريق مؤلفاتى ، وسيكون من الدين أقبل من أجلهم ثرى بغداد يوم أفارق بغداد ، وصداقة الأرواح شىء نفيس ، ومودة العقول من ذخائر الرجال

وكانت ليلتنا كما قال ابن المعتز :

ثم انقضت والقلب يتبعها . فى حينما وقعت من الدهر

فأين ليلتنا من الدهر ؟ أين ؟ أين ؟ إنك يا دهر لظلوم !

كنت أول من دخل البهو فى تلك الليلة ، وكنت آخر من خرج ، ولولا الحياء لطلبت المبيت هناك لأستنشق ما بقى من أنفاس الظباء

رجعت إلى المنزل ، ولا أذكر كيف رجعت ، فقد استيقظت قُبيل الشروق ، فرأيت مصابيح البيت كلها مضاءة ، ورأيتنى فى ثياب السهرة كما كنت ، فعرفت أننى دخلت البيت بلا وعى ولا إحساس

ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالى بغداد
وإلى معالى أرشد العمرى تحيتى وثنائى !

* * *

هذا صباح العيد ، وهذا طوافى برياسة مجلس الوزراء ، أصافح الرجال الذين عناهم الشريف الرضي حين قال :

تحاسن أقمار الدجى بوجوههم فتبهرها نوراً وتغلبها سعداً
تخالهمُ غيداً إذا بذلوا الندى وتحسبهم جناً إذا ركبوا الجردا

هذا هو الرجل العذب الروح النبيل الشمائل جميل المدفى رئيس الوزراء الذى لا يصدق من يرى صباحة وجهه أنه من صناديد القتال ، والليث لا يكون شتيماً فى كل حين

وهذا وزير المواصلات ، الصديق الذى أحببته منذ رأيته فى سهرات رمضان

وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يرانى أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس

* * *

ويتفضل صديق عزيز فينقلنى بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نورى باشا السعيد ، وكنت أتمثل نورى باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون ، فأراه فتى خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس ؛ ويقبل علىّ نخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر ، يا دكتور مبارك ، لأنى قرأت جميع مؤلفاتك

ويروعنى هذا اللطف فأقول : « لقد علم الله كرم نفسك فحفظ عليك شبابك يا نخامة الرئيس »

ويقبل علىّ الحاضرون فيسألون عن صحة ليلى ، فيبتسم نورى باشا ويقول :

« إن ليلى المريضة فى العراق هى شبكة ينصبها الدكتور زكى مبارك لتقع فيها احدى الليليات »

وأتألم من ذلك فأقول : « إن مولاي نسى أنه تلطف فأعان الضابط عبد الحسيب على الانخراط فى سلك الجيش العراق سنة ١٩٢٦ »

ويمسح نورى باشا جبينه ويقول : « تذكرت ، تذكرت ، شفى الله ليلى على يديك »

* * *

ثم نمضى فنزور معالى مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذى أفهم العالم أن من واجب الجيش الانجليزى أن يحسب ألف حساب للجيش العراقي ، ونسمع الفصاحة العربية التى كانت تعذُب وتطيب على ألسنة الغزاة الفاتحين

وفى مساء يوم العيد نحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالاً فخماً يشارك فيه أقطاب العراق

وفى اليوم التالى أمضى لإلقاء محاضرتى فى المؤتمر الطبي فيقبل علىّ عشرون طفلاً وهم يصيحون : « الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك »

ويجيء صديق من الأطباء السوريين فيقول : « لقد صارت طلعتك بهجة لأطفال بغداد يا دكتور مبارك ! » فينهمل دمعى وأقول : « نعم ، فهذه الطفلة تشبه كريمة ، وهذا الطفل يشبه عبد السلام ، وهذا يشبه عبد المجيد ، وتلك الفتاة تشبه زينب ، وهذا الفتى يشبه سليمان »

أبنائى الأعزاء ، لقد نهبتنى منكم بغداد ، فاغفروا لى ذنبي فما ذقت حلاوة العيش إلا فى بغداد

* * *

تحدثت عن الليلة السعيدة التى أقامها معالى أمين العاصمة ، وكنت أحسبها خاتمة الليالى الملاح ، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف ، وهى ليلة الجمعية الطبية العراقية . فلنذكر بالتفصيل ما وقع فى تلك الليلة من ضروب الفُتون ، فقد تمر أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد ، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب

ومن الواجب علىّ وقد أجاب الأطباء دعوتي فعقدوا المؤتمر العاشر فى بغداد ليعاونوني على مداواة ليلى ، من الواجب أن أسجل بقلمى ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليال أروع وأنضر من ليالي الرشيد ، ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد .

« للحديث شجون »

زكى مبارك